



معهد الدراسات الإسماعيلية

الزمن الدوري والتاريخ المقدس في الفكر الإسماعيلي في القرون الوسطى الدكتور فرهاد دفتري

ظهرت الجماعات الإسماعيلية الأولى في عام ١٤٨ هجري/ ٧٦٥ ميلادي عندما انفصلت عن بقية الشيعة الإمامية، والذين كانوا متمركزين في الكوفة جنوب العراق [١]. وبحلول أوائل ستينيات القرن الثالث الهجري/ سبعينيات القرن التاسع الميلادي، كان الإسماعيليون قد نظموا حركة ديناميكية ظهر من خلالها العديد من الدعاة في مناطق عديدة من العالم المسلم. أشار الإسماعيليون في هذه المرحلة لحركتهم الدينية- السياسية بالدعوة أو 'الدعوة الهادية'. كان الهدف الأساسي من الدعوة الإسماعيلية المبكرة هو تعيين الإمام العلوي (من نسل علي)، والمعترف به من قبل الشيعة الإسماعيليين، في موقع القائد لكل المسلمين منافساً للخليفة العباسي في بغداد. بلغ النجاح السريع للدعوة الإسماعيلية المبكرة ذروته بتأسيس الخلافة الفاطمية عام ٢٩٧ هجري/ ٩٠٩ ميلادي في شمال أفريقيا. قادت الدعوة الدينية- السياسية للإسماعيليين في النهاية لتأسيس 'الدولة' التي يقودها الإمام الإسماعيلي. عندما حصل الإسماعيليون على دولة مزدهرة خاصة بهم في العهد الفاطمي (٢٩٧-٥٦٧ هجري/ ٩٠٩-١١٧١ ميلادي)، قاموا بتعزيز التنوع في التقاليد الفكرية ومؤسسات التعليم، مقدمين مساهمات هامة للفكر والثقافة الإسلامية.

وُجد الإطار الأساسي للنظام الإسماعيلي للفكر الديني مسبقاً وذلك في مرحلة ما قبل العهد الفاطمي من التاريخ الإسماعيلي. وفي الحقيقة، اكتسبت التقاليد الفكرية الإسماعيلية أنماطها وتعابيرها المميزة في عام ٢٨٦ هجري/ ٨٩٩ ميلادي عندما انقسمت الدعوة الإسماعيلية إلى الفصيلين المتنافسين الإسماعيليين الفاطميين والقرامطة [٢]. قام الإسماعيليون الفاطميون بتطوير التعاليم المميزة للإسماعيلية المبكرة كما وعدلوا بعضاً الجوانب المحددة فيها، بينما اتبع القرامطة نهجاً عقائدياً منفصلاً.

أكد الإسماعيليون الأوائل عندما وضعوا نظامهم الديني على التمييز الأساسي بين الأبعاد الظاهرية والباطنية للكتب المقدسة والوصايا والمحرمات الدينية. ووفقاً لذلك، فقد وجدوا بأن الكتب المقدسة الموحاة، وعلى رأسها القرآن، والشرائع المنصوص عليها ضمنها، لها معنى حرفي يمثل 'الظاهر'، والذي يجب تمييزه عن المعنى الباطني أو الحقيقة الروحية الصحيحة الموجودة في 'الباطن'. لقد أكدوا أن 'الظاهر' أو الشرائع الدينية التي جاء بها الرسل- الأنبياء، قد خضعت لتغييرات دورية بينما ظل الباطن الذي يتضمن الحقائق الروحية ثابتاً وأبدياً.

يمكن إظهار الحقائق المخفية من خلال التأويل، وهو عملية استخراج الباطن من الظاهر. وجدت عمليات تأويل مشابهة في الفترة اليهودية- المسيحية المبكرة وكذلك في التقاليد الغنوصية، لكن يمكن إرجاع السوابق المباشرة للتأويل الإسماعيلي، والمعروف أيضاً بالتأويل الباطني، إلى البيئات الشيعية في القرن الثاني والثالث الهجري في جنوب العراق، مهد الشيعة.

وضّحت تعاليم الإسماعيليين أيضاً أن الوصول إلى العالم الباطني للحقيقة الروحية يمكن فقط 'للخواص' في كل عصر بوصفهم متميزين عن الناس العامة (العوام) القادرين على فهم المعنى الظاهري للوحي (الظاهر) فقط. في عهد الإسلام، كان كشف حقائق الدين الخالدة متاحاً فقط لأولئك الذين دخلوا في الدعوة الإسماعيلية بشكل صحيح وأمنوا بالمرجعية الدينية لوصي النبي محمد، الإمام علي بن أبي طالب، ومن جاء بعده من السلالة العلوية الحسينية. أطلق عليهم بشكل جماعي 'أهل التأويل'، وقد مثلوا موئل المعرفة وتعاليم الدين في عهد الإسلام. إن هؤلاء المرشدين المفوضين في الواقع هم من أشار القرآن لهم في الآية (٧:٣) بتعبير 'الراسخون في العلم' [٣]. وثقت محورية التأويل لدى الإسماعيليين الأوائل بحقيقة أن الجزء الأكبر من أدبهم يدور حول كتابات التأويل، والتي تسعى لإثبات المذهب الإسماعيلي من خلال الآيات القرآنية.

تم الحصول على حقوق النشر من الناشر المذكور.

إن استخدام المواد الموجودة على موقع معهد الدراسات الإسماعيلية يشير إلى القبول بشروط معهد الدراسات الإسماعيلية لإستخدام هذه المواد. كل نسخة من المقال يجب أن تحتوي على نفس نص حقوق النشر التي تظهر على الشاشة أو التي تظهر في الملف الذي يتم تحميله من الموقع. بالنسبة للأعمال المنشورة فإنه من الأفضل التقدم بطلب الإذن من المؤلف الأصلي والناشر لإستخدام (أو إعادة استخدام) المعلومات ودائماً ذكر أسماء المؤلفين ومصادر المعلومات.

قال الإسماعيليون بأن الحقائق الأبدية المتخفية في الباطن تمثل الرسالة الحقيقية المشتركة بين اليهودية والمسيحية والإسلام. ومع ذلك، فقد تم حجب حقائق هذه الديانات الإبراهيمية التوحيدية، المعروفة في القرآن، بشرائع ظاهرية مختلفة حسبما تقتضيه الظروف المتغيرة. طور الإسماعيليون الأوائل مضامين واسعة لهذه الحقائق مدركين تماماً 'شمولية' نظامها الفكري المعرفي، هذا النظام الذي قدم بشكل واضح وجهة النظر الإسماعيلية الباطنية. إن المكونين الرئيسيين لهذا النظام هما التاريخ الدوري للوحي والعقيدة الكونية مع مفهوم الخلاص الأساسي فيها.

كان الإسماعيليون مع بدايات عام ٢٨٠ هجري/ ٨٩٠ ميلادي قد سبق لهم أن طوروا تفسيراً دورياً للزمن والتاريخ المقدس للبشرية، وقد طبقوا هذا التفسير على الوحي اليهودي- المسيحي والعديد من الديانات قبل الإسلام مثل الزرادشتية، المزدكية والمانوية. كان تصورهم للزمن كتعاقب 'للأدوار' أو العهود ('الأدوار' هي جمع لكلمة دور) ولها بداية ونهاية. قدم الإسماعيليون وجهة نظر عن التاريخ المقدس لعهد الأنبياء المختلفة المعروفة في القرآن وذلك بناء على أسس وجهة نظرهم الزمنية الإنتقالية، والتي تعكس التأثيرات اليونانية واليهودية- المسيحية والغنوصية وكذلك أفكار عهد القيامة الشيعية. كان التفسير النبوي للتاريخ الديني للبشرية مندمجاً مع المذهب الإسماعيلي للإمامة، والذي ورث عن الشيعة الإماميين الباكرين.

ووفقاً لنظرتهم الدورية، آمن الإسماعيليون منذ وقت مبكر بأن التاريخ المقدس للبشرية مر خلال سبعة عهود نبوية ذات أطوال مختلفة، أعلن بداية كل من هذه العهود نبي- 'ناطق' بالرسالة الإلهية الموحاة والتي تتضمن بجانبها الظاهري الشريعة الدينية. كان الناطقون في العهود الستة الأولى من التاريخ البشري بالترتيب آدم، نوح، إبراهيم، موسى، عيسى و محمد. تحدث هؤلاء النطاء عن الأوجه الظاهرية لكل وحي مع طقوسه ووصاياه ومحرماته، بدون شرح تفاصيل عن معناها الباطني. ومن أجل هذا الغرض خُلف كل 'ناطق' 'وصي'، كان يدعى أيضاً 'بالصامت' ولاحقاً دعي 'بالأساس'، والذي يكشف للنخبة الحقائق الباطنية الموجودة ضمن الأبعاد الباطنية لرسالة ذلك العهد. كان الأوصياء الستة الأوائل من التاريخ المقدس هم شيث، سام، اسماعيل، هارون، شمعون الصفاء والإمام علي بن أبي طالب. في كل 'دور' كان يأتي بعد كل وصي بدوره سبعة أئمة، وكذلك يطلق عليهم الأئمة (مفردها: متمم وتعني المكمل)، والذين كانوا يقومون بالوصاية على المعنى الحقيقي للكتب المقدسة والشرائع بأوجهها الظاهرية والباطنية. سيرتقي الإمام السابع أو (المتمم) في كل دور في المرتبة ليصبح ناطقاً للدور التالي ويقوم بإلغاء شريعة الدور السابق ويعلن شريعة جديدة. سيغير هذا النظام في الدور السابع والأخير من التاريخ المقدس فقط [٤].

في الدور السادس، عهد النبي محمد والإسلام، كان الإمام السابع الإمام محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق والذي، وفقاً لمعظم الإسماعيليين المبكرين، كان قد دخل دور الستر وعرف **بالمهدي**. عند ظهوره من جديد، بصفته المهدي أو 'القائم'، محققاً العدالة على الأرض ومصححاً الإسلام الحقيقي، كان قد أصبح الناطق السابع، معلناً بداية العهد الأخير. ولكنه ليس ككل الناطقين السابقين إذ أن الإمام محمد بن إسماعيل لن يُحضر شريعة جديدة لتحل مكان شريعة الإسلام المقدسة. بدلاً من ذلك، ستكون مهمته، كما هو متوقع في عهد القيامة الأخير، منوطة بالكشف الكامل للبشرية جمعاء عن الحقائق المخفية الباطنية والكامنة في الوحي السابق كله، والحقائق الثابتة لكل الأديان التي كان الوصول لها سابقاً حكراً على النخبة 'الخواص' من البشر. في هذا العهد المسيحي الأخير لن يكون هناك حاجة للشرائع الدينية. سيجتمع الإمام محمد بن إسماعيل في نفسه مرتبة الناطق والوصي كونه آخر الأئمة، الإمام المهدي المنتظر. في العهد الألفي الأخير من المعرفة الروحية النقية، سوف تتحرر الحقائق من كل الأقنعة والرموز. في عهد الرسالة المهديّة، لن يكون هناك أي فرق بين الظاهر والباطن، بين رسالة الشريعة وروحانياتها الداخلية. ظهور ولايته هو نذير لنهاية الزمن والتاريخ البشري، وسوف يحكم الإمام محمد بن إسماعيل بعدالة كالقائم المنتظر قبل إكمال العالم المادي [٥]. دعيت الدورة الكاملة من آدم حتى ظهور القائم بوصفه الناطق السابع 'بدور الستر'، لأن كل الحقائق الروحية كانت مخبأة ضمن الشرائع. وعلى العكس من ذلك، فقد تمت تسمية العهد السابع عندما تكون كل الحقائق مكشوفة بشكل كامل للبشرية من قبل القائم 'بدور الكشف'.

كتبت النظرة الدورية الإسماعيلية للتاريخ المقدس أولاً من قبل الدعاة من الأراضي الإيرانية، وبالأخص الداعي الملقب بمحمد بن أحمد النسفي (المتوفي عام ٣٣٢ هجري/ ٩٤٣ ميلادي) والذي ضاع عمله الرئيسي 'كتاب المحصول' عبر الزمن، والداعي أبو حاتم (المتوفي عام ٣٣٢ هجري/ ٩٤٣ ميلادي) والذي كانت أفكاره عن الموضوع مشروحة بشكل رئيسي في كتابه 'الإصلاح'. لكن المؤلفان ومن جاء بعدهم في المراحل الأولى، وخاصة أبو يعقوب السجستاني (المتوفي بعد عام ٣٦١ هجري/ ٩٧١ ميلادي)، قد اختلفوا على بعض التفاصيل في العهود النبوية السبعة. كرس النسفي والرازي الكثير من الجهد والتفكير المبدع أيضاً لإستيعاب عدد من أديان

ما قبل الإسلام، ولا سيما ديانات الزرادشتيين، والمانويين والصابئة، ضمن مشروعهم عن عهد الوحي السبعة من التاريخ المقدس وإسناد هذه الديانات لأدوار وناطقين محددتين. كما أدخل أبو حاتم الرازي مفهوم 'المرحلة الإنتقالية' (دور الفترة)، المميزة بغياب الأئمة وتحدث في نهاية كل دور نبوي، بين غياب الإمام السابع في تلك الفترة وإعلان الناطق للعهد التالي. ووفقاً للرازي، ينتمي الزرادشتيون، على سبيل المثال، للعهد الرابع، دور موسى، وزرادشت نفسه ظهر خلال المرحلة الإنتقالية في نهاية ذلك الدور [٦]. في ضوء مثل هذه المذاهب المتجذرة في النظرة الشاملة التوحيدية والتوفيقية، بدأ الإسماعيليون بتطوير نظامهم الفكري، النظام الذي لم ينل إهتمام كل المسلمين على اختلاف انتماءاتهم الإجتماعية والتفسيرية للدين وحسب ولكن أيضاً لأتباع العديد من التقاليد الدينية الغير إسلامية. استطاع الإسماعيليون فقط من بين كل الجماعات المسلمة أن يستوعبوا بطريقة شاملة وواضحة في مشروعهم الدوري عن التاريخ المقدس التقاليد اليهودية-المسيحية بالإضافة لعدد من الديانات الإيرانية الأخرى قبل الإسلام، والتي كانت في ذلك الوقت لاتزال تتمتع ببعض الوجود في بلاد فارس وآسيا الوسطى.

لقد حافظ الإسماعيليون الفاطميون على وجهة النظر النبوية الدورية للتاريخ المقدس التي وضعها الإسماعيليون الأوائل كما قاموا بصقلها وتطوير جوانب معينة منها، وخصوصاً ما يخص فترة الدور السادس، عهد الإسلام [٧]. تابع القرامطة المنشقون في البحرين وغيرها في أعقاب الإنقسام الذي حدث عام ٢٨٦ هجري/ ٨٩٩ ميلادي في الحركة الإسماعيلية، إتباع الأفكار الباكورة وانتظروا ظهور الإمام محمد بن إسماعيل، 'المهدي' و'الناطق' السابع الذي كان متوقفاً منه إنهاء عهد الإسلام وصحة شريعته. انشغل القرامطة بشكل مكثف بنبؤات ظهور المهدي وظروف 'الدور' السابع، الذي سيحل مكان عهد الإسلام. يمكن النظر لأعمال التنديس التي قام بها قرامطة البحرين في مكة في عام ٣١٧ هجري/ ٩٣٠ ميلادي في هذا السياق حيث أنهم اقتلعوا الحجر الأسود من زاوية الكعبة واحتفظوا به لحوالي عشرين عام في عاصمتهم الجديدة الإحساء.

من ناحية أخرى، أيد الإسماعيليون الفاطميون الإستمرارية في الإمامة، وأجازو لأكثر من سبعة إمامية في عهد الإسلام. فبالنسبة لهم كان الدور السابع والذي عرف مبكراً بالعهد الروحي للمهدي قد فقد صفته المخصصة بشكل كامل. فقد غدا العهد الأخير، ومهما كانت طبيعته، منذ ذلك الوقت وصاعداً مؤجلاً لأجل غير مسمى، وكانت مهام المهدي المنتظر أو القائم والذي سوف يعلن يوم القيامة في نهاية الزمن، مشابهة لما تم تصوره عند الجماعات المسلمة الأخرى. لم يكن من المتوقع أن يعود الإمام محمد بن إسماعيل نفسه بدور المهدي، وكانت مهامه بمعناها الأصلي قد تابعها خلفاءه الذين حكموا في نهاية المطاف كأئمة خلفاء فاطميين. إضافة لذلك فقد قدم بعض الكتاب-الدعاة من العهد الفاطمي مفاهيم جديدة ضمن المشروع الدوري. فقد ميز ناصر خسرو (المتوفي بعد عام ٤٦٢ هجري/ ١٠٧٠ ميلادي)، والذي كان داعي الدعوة في خراسان، على سبيل المثال، بين الدورة الكبرى (دور المهن)، والتي تشمل على سلسلة العهود النبوية السبعة، والدورة الصغرى (دور الكهن) والتي تحدث بالتزامن مع الجزء الأخير من الدورة الكبرى وتتضمن عهد الإسلام وما بعده [٨].

قام الإسماعيليون في وقت لاحق بعرض المزيد من الإبداعات لتفسيرهم الباكر للتاريخ المقدس والمعبر عنه بالأدوار النبوية السبعة. كان الإسماعيليون المستعملون الطبييون في اليمن قد احتفظوا بشكل أساسي بالتقاليد الفاطمية في المجال العقائدي والإهتمامات الإسماعيلية المبكرة في التاريخ المقدس الدوري وعلم الكونيات وكانوا بناء على الحسابات الفلكية قد قالوا بالدورة الكبرى (الكور الأعظم) والتي تتألف من عدد لا يحصى من الدورات، كل منها مقسم لسبعة أدوار، وسوف تكتمل الدورة الكبرى بقيامة القيامة. يقدر بأن تستمر الدورة الكبرى لـ ٥٠٠,٣٦٠ مضرورية بـ ٥٠٠,٣٦٠ سنة (أو ١٣٠ بليون سنة)، وتسير من خلال دورات متعاقبة من 'الستر' و'الكشف' أو 'الظهور'، وتتألف كل منها من سبعة أدوار. لقد مر عدد غير معروف من الأدوار المتعاقبة من 'الستر' و'الكشف' حتى دور الستر الحالي الذي بدأه آدم التاريخي المذكور في القرآن الكريم، والذي كان الناطق الأول في العصر الحالي. عندما يتم إغلاق هذه الدورة بالناطق السابع والقائم المنتظر للدورة الحالية، سوف تبدأ دورة جديدة من الكشف يبدأها آدم الجزئي، وهكذا. سوف تستمر التناوبات الغير معدودة لهذه الدورات حتى ظهور القائم الأخير معلناً القيامة النهائية أو 'قيامه القيامة' في نهاية الدورة الكبرى. إن إكتمال الدورة الكبرى سوف يسجل أيضاً نهاية التاريخ الإسماعيلي الطبي الأسطوري [٩].

أسس الإسماعيليون النزاريون الأوائل بقيادة حسن الصباح (المتوفي عام ٥١٨ هجري/ ١١٢٤ ميلادي) إمارة في بلاد فارس، مع فرع لها في سورية. اتبع النزاريون الذين تمتعوا بأهمية سياسية خلال فترة الموت من تاريخهم، مساراً دينياً وسياسياً خاصاً بهم، مختلفين بذلك عن الإسماعيليين الطبيين، ولم يكونوا مهتمين بشكل خاص بالنظرة الدورية المبكرة للتاريخ الديني، بالرغم من أنهم استمروا عموماً بالإلتزام للمشروع الباكر للأدوار النبوية السبعة. انشغل النزاريون في بلاد فارس بمواجهة عداء الأتراك السلاجقة وضمان نجاتهم ولم

يقدموا العديد من العلماء. ومع ذلك فقد حافظوا على مكانة مرموقة وطوروا تعاليمهم التي تدور حول المذهب الشيعي المركزي 'للتعليم'، أو التعليم الرسمي من قبل إمام الزمان.

أعلن الإمام النزاري في عام ٥٥٩ هجري/ ١١٦٤ ميلادي القيامة بشكل رمزي لجماعته. شرحت فيما بعد ذلك معاني وآثار هذا الإعلان من الناحية العقائدية للقيامة. أضافت هذه الشروحات عنصراً آخر في التاريخ المقدس الدوري يتمثل بشخصية الإمام القائم، الإمام الذي سيبدأ عهد القيامة، واعتبرت هذه الشروحات أن كل إمام نزاري يمكن أن يكون القائم. عندما شرح النزاريون عقيدة القيامة فإنهم قالوا بوجود عهود قيامة انتقالية خلال دور النبي محمد والذي قد بدأ دور الستر مثل من سبقه من النطفاء الخمسة. في عهد الإسلام وبتقدير خاص لعظمة النبي محمد، سيكون هناك وفي حالات خاصة عهود جزئية للقيامة بإرادة الأئمة النزاريين الحاليين، تقدم كل منها تجربة للقيامة العظمى التي ستحدث في نهاية الدور السادس الذي بدأه النبي محمد. ستعلن القيامة العظمى بداية الدور الأخير، الدور السابع من التاريخ المقدس للبشرية. وكما هو ملاحظ، يمكن من حيث المبدأ أن تمنح مرحلة القيامة بأي وقت من قبل الإمام النزاري الحالي، والذي يعتبر قائماً أيضاً. وبالتالي، في عهد الإسلام والنبي محمد، يمكن أن تتناوب الحياة بين عهود القيامة والستر وذلك بناءً على رغبة الإمام الحاضر، وهذه هي الحالة الطبيعية لحياة البشر. فسر النزاريون 'القيامة' روحياً بإستخدام التأويل الإسماعيلي على أنها تمثل كشف الحقائق في شخص الإمام النزاري، بينما يعني 'الستر' إخفاء الحقيقة الروحية الصحيحة للإمام وعندها تكون الحقائق مخبأة في باطن الشرائع مرة أخرى وتتطلب الإلتزام التام بالشرعية والتقية [١٠].

فقد النزاريون مكانتهم السياسية مع تدمير الدولة النزارية الإسماعيلية في بلاد فارس من قبل جحافل المغول في عام ٦٥٤ هجري/ ١٢٥٦ ميلادي. عاشوا بعد ذلك، ولعدة قرون، في مجتمعات مختلفة ومتفرقة، متخفين تحت غطاء الصوفية والسنية والشيعية الإثنا عشرية. خلال إحياء الدعوة النزارية ونشاطاتها الفكرية في فترة أنجودان والتي استمرت لمدة قرنين حتى حوالي عام ١١٠٠ هجري/ ١٦٨٨ ميلادي، أكد النزاريون بشكل أساسي الأفكار التي طورت خلال فترة أموت من تاريخهم ولكن مع بعض الإشارات المتفرقة للزمن الدوري والتاريخ المقدس [١١].